مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

ملفات
المسلمون في البلقان، الدور والمستقبل

مسلمو جنوب شرق أوروبا.. أصالة الهُويَّة وملامح المستقبل

كريم الماجري*

19 يونيو/حزيران 2014

Al Jazeera Centre for Studies
Tel: +974-44663454
jcforstudies@aljazeera.net
http://studies.aljazeera.net

المصدر (الجزيرة)

ملخص

المسلمون في جنوب شرق أوروبا (البلقان) سكان أصليُّون شاركوا بفعالية في تشكيل الهوية الأوروبية وصناعة حضارتها، واجهوا في السابق -وما زالوا- مظالم وتحديات كبيرة في محيطهم الأوروبي العام المختلف عنهم دينيًّا وثقافيًّا؛ الرَّافض في أغلبه لهم أو للاعتراف باختلافهم عنه، ويُشَكِّك في نواياهم، فهم -بحسب إحدى التفسيرات الأوروبية الأكثر شيوعًا- "من مخلَّفات الإمبراطورية العثمانية"؛ التي يجب مسح كلّ آثارها عن القارَّة الأوروبية "المسيحية". ومن التحديات الأخرى أمام المسلمين القدرة على الجمع بين الولاء الوطني وبين الولاء القومي المتداخل مع انتمائهم الديني، والجمع بين متطلَّبات أوروبا ذات المرجعية المسيحية مع متطلَّبات خصوصيتهم الدينية. وفي السياق نفسه تشهد المنطقة عدَّة أنماط من التديُّن؛ تتراوح بين الانتماء التقليدي لثقافتهم الخاصة، وبين أنماط أخرى وافدة؛ كحالات التديُّن السلفية أو الحركية؛ فضلاً عن تعرُّضهم لمحاولات من التشييع مذهبيًّا أو التنصير دينيًّا. ويسعى مسلمو البلقان ليكونوا مواطنين في بلدانهم الأوروبية مهما كانت الاختلافات، ويخشون أن تنتقل اختلافات العالم إلى مجتمعاتهم فتُضعفها؛ ليجمعوا ما بين وصف الأقلية والانقسام.

تكاد تغيب الدراسات الجدية والعلمية المتعلِّقة بدراسة تاريخ الإسلام البلقاني وتعدُّد تمظهراته، وامتداد جذوره وأدواره المتقدمة في المشاركة الفاعلة في بناء الحضارة الغربية، وتشكيل جزء مهمٍّ من هوية أوروبا عبر قرون عديدة؛ بينما غالبًا ما يستدعي وجود وحضور المسلمين في جنوب شرق أوروبا تضاربًا صارخًا في التحاليل والتقييمات المتناولة لأصل ذلك الوجود؛ ما إذا كان طارئًا مع قدوم العثمانيين للمنطقة وبسط سيطرتهم عليها، وهو الرأي الغالب على الباحثين الغربيين عمومًا، خاصة البلقانيين من غير المسلمين، أم هو أقدم من ذلك بكثير(1)؟

نظريتان غربيَّتان تُقَدَّمان في هذا السياق؛ يعتبر أنصارُ إحداهما -وهم أقلية- أنَّ منطقة البلقان خصوصًا وجنوب شرق أوروبا عمومًا هي مهد الإسلام العصري والمتسامح، وقلة من تلك الأقلية من الباحثين الغربيين ترى أنَّ المسلمين سكان أصليون في تلك المناطق التي سكنوها وعاشوا فيها منذ القرن السابع الميلادي، ولا يعود وجودهم على تلك الأراضي فقط إلى الفتوحات العثمانية في القرن الرابع عشر؛ وذلك في حين يذهب أنصار الفريق الثاني إلى أنَّ المنطقة ما هي إلاَّ موقع

متقدِّم على أبواب أوروبا للإرهاب الإسلامي؛ حتَّى إنَّ المنظِّر السياسي الأميركي صامويل هانتغتون صاحب نظرية: "صراع الحضارات" ذهب في تحليله (لحروب البلقان الأخيرة) إلى قراءة غريبة تُخالف كلَّ الحقائق الموثَّقة لتلك الأحداث، التي رأى فيها "إحدى الأدلَّة الدَّامغة على وجود حدود دموية للإسلام"(2).

غير بعيد عن هذا الجدل القديم المتجدِّد تبحث هذه الدراسة الموجزة في "أوروبية" مسلمي البلقان، وتحاول سريعًا الوقوف على التحولات التي طرأت عليهم بعد انسحاب الإمبراطورية العثمانية من المنطقة، وتركهم دون نصير أو ظهير، وتتناول أهم الصعوبات التي تعترض المسلمين في جنوب شرق أوروبا في فضائهم السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي الغربي؛ وذلك في حين خُصِّص الجزء الأخير من الورقة للتركيز على ملامح مستقبل مسلمي هذه المنطقة.

"أوروبية" مسلمي البلقان والتَّحولات الطارئة

يعود وجود المسلمين في جنوب شرق القارة الأوروبية إلى القرن الرابع عشر؛ وفقًا للرواية الأكثر شيوعًا في الدِّراسات والبحوث الغربية، التي تسعى جاهدة في تقديمهم على أنَّهم إمَّا أتراك وفدوا مع جيوش العثمانيين، أو خونة من سكان تلك المناطق اعتنقوا الإسلام، أمَّا في بحوث أخرى أكثر اعتدالاً والتزامًا بالحقائق التاريخية والموضوعية العلمية والتاريخية؛ فإنَّ إسلام مسلمي جنوب شرق أوروبا يعود إلى القرن السابع ميلادي، وأنَّهم من أصول سلافية؛ أي من السكان الأصليين، وإن انضمَّ إليهم في أوقات لاحقة (القرن 14) وافدون من تركيا، وغيرها من المناطق الآسيوية والعربية الأخرى، كما أنَّ من بينهم مَن اعتنق الإسلام إمَّا قناعة أو لأسباب شخصية أخرى.. ومهما يكن من أمر فإنَّه ما من شكٍّ في أنه لا شيء من هذا يطعن في "أوروبيَّتهم"؛ باعتبارهم ينتمون جغرافيًّا إلى تلك المناطق، ولا يمكن استثناؤهم من بين سكان أوروبا لكونهم مسلمين؛ فأوروبا مسلمة بالقدر نفسه الذي هي فيه مسيحية أو يهودية، علمانية أو ملحدة.

كما أنَّه لا شكَّ -أيضًا- في أنَّ عصر الحكم العثماني في منطقة جنوب شرق أوروبا كان يمثِّل حقبات ازدهر فيها الوجود المسلم، وعرف فيها المسلمون ازديادًا ملحوظًا في أعدادهم، وبرزت أدوارهم على المستويات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، فضلاً عن أدوارهم السياسية، وقد كان أولئك المسلمون ينتمون إلى إثنيات مختلفة شكَّلت في حينها عامل إثراء للنسيج المجتمعي المسلم، وكان ولاؤهم خالصًا للباب العالي ولشيخ الإسلام في إسطنبول؛ لكنَّ وضع المسلمين في دول جنوب شرق أوروبا عرف تحوُّلات جذرية؛ بدأت منذ نهايات القرن التاسع، وتمتدُّ إلى يومنا هذا.

فمع انسحاب الإمبراطورية العثمانية من المنطقة بدأت حملات ترحيل المسلمين وتهجيرهم القسري، وبلغت حملات التطهير العرقي والقتل على الهوية ذروتها في الفترة التي تبعت استقلال اليونان في ثلاثينات القرن التاسع عشر، وحصول بلغاريا بدورها على استقلالها في عام 1878، ثم ما تلا ذلك من حروب البلقان الدامية ما بين عامي 1912-1914، وما كان بعدها من حرب طاحنة تواجهت فيها اليونان وتركيا، وقادت إلى اتفاقيات "لوزان" الشهيرة، التي أفضت في حينها إلى عمليات تبادل للمواطنين من الجانبين في عام 1920.

فمع كلِّ تأسيس أو استقلال دولة من دول البلقان فإنَّه غالبًا ما كان يتمُّ التخلُّص من جزء كبير أو صغير من جماعاتها المسلمة، وإجبارها على الهجرة، بالإضافة إلى ما خلفته الحروب المبكرة وعمليات تبادل المواطنين التي نتج عنها تهجير أو هجرة ما يقرب من مليون ونصف المليون مسلم كانت تركيا وجهتهم الرئيسة.

نتائج الحروب وحملات التهجير تلك ما تزال إلى اليوم تمثِّل تجربة حاضرة بقوَّة في الذاكرة الجمعية؛ وذلك لسببين على الأقل؛ فأولاً: هي تعكس الخوف الكامن لدى عدد مهمٍّ من مسلمي البلقان من إمكانية تعرُّضهم يومًا ما للتَّهجير مرَّة أخرى من بلدانهم التي يُقيمون فيها حاليًّا.

وثانيًا: تمثِّل تلك التجارب المريرة عاملاً يبعث على سعي غالبية المسلمين في الدول البلقانية إلى تقوية الروابط التي تجمعهم بإخوانهم من مسلمي تركيا، الذين ينحدرون مثلهم من الإثنية/القومية نفسها، وربَّما ينطبق هذا بشكل واضح اليوم على كوسوفو ومقدونيا؛ حيث تربط بين مَنْ تَبَقَّى من المسلمين الألبانيين والأتراك وشائجُ وعلاقاتٌ عائلية مع أقاربهم المقيمين في تركيا، والشيء نفسها ينطبق -أيضًا- وربما بشكل أكثر وضوحًا على بلغاريا واليونان؛ حيث ما تزال قنوات التواصل مع تركيا تشهد زخمًا ملحوظًا، في حين تقلُّ قوَّة تلك الروابط بين تركيا وألبانيا من جهة، وبين تركيا والبوسنة والهرسك من جهة ثانية؛ وذلك بحكم أنَّ أغلب موجات هجرة المسلمين من هذين البلدين إلى تركيا حدثت في مراحل تاريخية مبكرة، وتختلف مواقف مسلمي البلقان -أو جنوب شرق أوروبا عمومًا- من الإرث التاريخي العثماني، وما إذا كان يمثِّل عبئًا يمنع تقدُّمهم نحو الأفضل، أم هو عنصر محفِّز لهم على فرض وجودهم، وبناء علاقات ندِّيَّة مع أتباع الديانات الأخرى في البلدان التي يعيشون فيها؟

الإرث العثماني واختلاف مواقف مسلمي جنوب شرق أوروبا منه

تختلف تقييمات شعوب البلقان المسلمة للموروث العثماني سلبًا وإيجابًا، قبولاً ورفضًا، تبنِّيًا وإنكارًا للقيم والعادات والتقاليد، وللإرث الديني والأخلاقي الذي أرست دعائمه الإمبراطورية العثمانية عبر تاريخ المنطقة؛ فكلما قربت الدولة إلى جهة الشرق كان تقييم الإرث العثماني إيجابيًّا، وازداد احترام مسلمي تلك الدولة وتقديرهم للبعد الديني الذي أرسى العثمانيون دعائمه في المنطقة.

ففي البوسنة والهرسك يختزن المسلمون البوشناق ذكريات مختلطة حول الإمبراطورية العثمانية؛ التي يذكرون لها دورها الحاسم في تقوية شوكة الإسلام في المنطقة؛ لكنَّهم في الوقت ذاته لم ينسَوْا ما يعتبرونه "خيانة العثمانيين" لهم، والتخلي عنهم للنمساويين؛ الذين احتلوا بلادهم في القرن التاسع عشر.

الوضع في ألبانيا مختلف تمامًا؛ فالميراث العثماني الدِّيني والثقافي فيها مرفوض من قِبَل الأغلبية العلمانية، وينظر الألبانيون عمومًا إلى الجزء الديني من ذلك الميراث على أنَّه عبء ثقيل سحب ألبانيا الأوروبية نحو الشرق؛ وذلك في حين يرون أنَّ مكانها الطبيعي هو الغرب الأوروبي/المسيحي(3).

أما في كوسوفو ومقدونيا فإن احترام المسلمين للإمبراطورية العثمانية ودورها التاريخي في أسلمة المجتمع كبير، ولدى شعوب هذين البلدين اعتزاز واضح ومشاعر حب وتقدير لتركيا، ويرون أنَّ معتقداتهم وطرق إحياء شعائرهم الإسلامية وعاداتهم وتقاليدهم تركية عثمانية.

ويُلاحظ في هذا السياق أنَّ البلدان البلقانية الثلاثة ذات الأغلبية المسلمة –كوسوفو وألبانيا والبوسنة والهرسك- تسعى إلى قطع الصلة مع الإرث العثماني في بعده السياسي، وإقامة وتمكين أنظمة حكم علمانية تفصل الدين عن الدولة، وتُعَامَل

المجتمعات الدينية فيها بشكل منفصل تمامًا عن الدولة؛ وذلك في حين نجد أنَّ الأرثوذكسيَّة في كلٍّ من مقدونيا وبلغاريا وصربيا واليونان تتمتَّع دستوريًّا وواقعيًّا بوضع الديانة المفضَّلة أو "الديانة التقليدية".

مسلمو البلقان وتداخل الولاء للدين والولاء للقومية

يمثِّل المسلمون البوشناقيُّون أغلبيَّة في فدرالية البوسنة والهرسك، وداخل إقليم السَّنجق الواقع بين صربيا والجبل الأسود، وهم يمثِّلون أغلبية نسبية لشعب دولة البوسنة والهرسك؛ تزيد أو تقل قليلاً عن (46%)، وهم يمثِّلون -أيضًا- الأغلبية المطلقة لشعب فدرالية البوشناق والكروات في البوسنة والهرسك؛ حيث تصل نسبتهم إلى (75%)، هذا في حين يمثِّل الألبانيون المسلمون أغلبية كاسحة في ألبانيا وكوسوفو ومقدونيا الغربية.

تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ تسمية "المسلمين" تُطلق على المسلمين بمعناها الاجتماعي؛ أي أنَّها وصف ينسحب على الأشخاص المنحدرين من عائلات وأسر ذات تقاليد مسلمة، ولا يجب الخلط بين هذه الفئة وبين فئات المسلمين الذين يُقيمون شعائر الدِّين الإسلامي بشكل عرضي (أداء صلاة الجمعة والعيدين وصوم شهر رمضان)، ولا بينها وبين الحريصين على شعائرهم بشكل منتظم؛ لذا -ولدواعي منهجية- فإننا سنجمع كلَّ تلك الفئات تحت مسمًّى واحد (المسلمون)؛ على الرغم من أنَّ من بينهم المتصوِّف والملحد، وأولئك الذين تحوَّلوا إلى المسيحية الرومانية، أو إلى البروتستانتية الإنجيلية، كما هو حال عدد متزايد من الألبان المسلمين في ألبانيا وكوسوفو.

على عكس الأقليات المسلمة الأخرى في شرق البلقان، فإنَّ المسلمين في كلٍّ من ألبانيا والبوسنة والهرسك وكوسوفو يسعَوْن إلى إقامة دول متعدِّدَة القوميات ذات سيادة ناجزة؛ وذلك في حين يناضل مسلمو إقليم السنجق ومسلمو شرق مقدونيا من أجل الحصول على وضع الأقاليم المستقلَّة ذات الحكم الذاتي.

يمكن القول: إنَّ هذا التطلُّع قد تحقَّق؛ وإن كان بشكل نسبي للمسلمين في ألبانيا منذ أكثر من قرن؛ عندما أقاموا دولتهم ذات الإثنية الألبانية الخالصة؛ أما في البوسنة والهرسك فيعود ذلك إلى ستينات القرن الماضي؛ حيث أطلقت حكومة "بروز يوسيبتيتو" مبادرة صُنِّفت فيها الإثنيات في البلد ضمن جماعات وطنية متباينة، وكان للمسلمين الحقُّ في التمايز عن باقي الأعراق والإثنيات الوطنية الأخرى، التي تُقاسمها العيش المشترك على الأرض وتحت سلطة يوغسلافيا الاتحادية.

تأخَّرت الشعوب المسلمة في البلقان -مقارنة بغيرها- في البدء بعملية بناء "الأُمَّة"؛ بسبب إصرارها المتواصل على الانتماء إلى الدولة العثمانية، التي لم ينتهِ وجودها الفعلي إلاَّ بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وقد أدَّى هذا التأخُّر في عملية بناء تلك "الأُمَّة" المنشودة وتأكيد الشعوب المسلمة لهُويتها داخل حيِّز جغرافي خاص بها إلى عدم تحقيق المسلمين أهدافهم؛ وذلك في حين استطاع الصرب واليونانيون والبلغاريون في المقابل التجمُّعَ في دول ذات سيادة منذ القرن التاسع عشر، وتمكَّنوا من ضمِّ كلٍّ أو أجزاء من الأراضي التي كان يسكنها المسلمون، التي كانوا يأملون في إقامة كياناتهم السياسية عليها.

نلاحظ في هذا السياق أنَّ عملية بناء "الأُمَّة" لدى مسلمي كلٍّ من ألبانيا والبوسنة والهرسك قد اتبعت مسارين متضادين تمامًا؛ فمسلمو ألبانيا -وفي إطار مشروع إثني- كوَّنوا "دولة/أُمَّة" واحدة يشتركون فيها مع الألبان الأرثوذكس والكاثوليك،

الذين يتقاسمون معهم اللغة نفسها، وكان الألبان المسلمون في تلك المرحلة قد عملوا على إبقاء ميراثهم الإسلامي خارج دائرة الفضاء الاجتماعي العام.

أمَّا المسلمون البوسنيون فاختاروا أن يكون طريقهم إلى تكوين "أُمَّتهم" بتأسيس جماعة دينية متمايزة عن الأرثوذكس والكاثوليك، الذين يشاركونهم الأرض نفسها واللغة ذاتها، وأن يُعطوا للإسلام دورًا حاسمًا في تحديد هويتهم.

ويمكننا هنا التساؤل عما إذا كانت الصراعات الإثنية التي طبعت عقد التسعينات الأخير من القرن الماضي قد ساعدت الشعوب المسلمة في البلقان على التقدُّم في تحقيق أهدافها الوطنية، أم أنَّ العكس هو الصحيح؟

هنا أيضًا لا يمكن أن تكون الأجوبة نهائية ولا حاسمة؛ فالبوسنة والهرسك وكوسوفو حصلا على استقلالهما؛ في حين لا تبدو ألبانيا قد خرجت بعدُ من الأزمة الخطيرة التي عصفت بها عام 1997، وأدَّت إلى إحداث انشقاق في وحدتها الوطنية؛ أما فيما يتعلَّق بمطالب الاستقلال الذاتي، أو الحقِّ في تقرير المصير التي ترفعها زعامات مسلمة تُوصف بالمتشدِّدَة في دول بلقانية أخرى -مثل مقدونيا والجبل الأسود وصربيا (إقليم السنجق)- فما تزال بعيدة التحقُّق في سياقات واقع اليوم؛ إذن فالقضية الوطنية لشعوب البلقان المسلمة المحلية البوشناقية والألبانية خاصة تظلُّ مطروحة وغير محسومة إلى الآن.

مؤسسات مختلفة هيكليًّا وتنظيميًّا

يتعقَّد المشهد العام الذي تعيشه المجتمعات المسلمة في جنوب شرق أوروبا؛ خاصة فيما يتعلَّق بمؤسساتهم التنظيمية، وتطبع هذه التنظيمات علاقاتهم بالدول التي يعيشون فيها من ناحية وبباقي الأغلبية المجتمعية، التي يُشاركونها العيش داخل تلك الدول، بالإضافة إلى موقف الجماعات المسلمة من التعاطي مع الإرث العثماني.

فلقد عرفت كل الإدارات المسلمة في المنطقة تطوُّرًا، وسجَّلت تمايزًا واضحًا عما كانت عليه في عهد حكم الإمبراطورية العثمانية؛ حين كانت كل تلك المؤسسات والإدارات المسلمة في علاقة مع مؤسسات الخلافة وشيخ الإسلام في إسطنبول.

وقد كانت المؤسسات الإسلامية في البوسنة والهرسك أُولى المؤسسات الإسلامية في المنطقة التي أخذت شكلاً تنظيميًّا وهيكليًّا يُحاكي نموذج المؤسسات النمساوية، (وكانت البوسنة تخضع حينها لسلطات الإمبراطورية النمساوية-المجرية، التي شجَّعت على إحداث تغييرات في تلك المؤسسات بهدف فصلها عن الارتباط المباشر بمؤسسة الخلافة العثمانية.

في ألبانيا كان القطع مع إسطنبول أكثر راديكالية؛ بحكم أنَّ العلمانيين القوميين الألبانيين هم من كانوا مهندسوه، ووجد دعمًا من الدولة؛ فأصبح بذلك واقعًا ناجزًا حتى قبل سقوط الخلافة العثمانية؛ هذا القطع مع مؤسسات الخلافة أدَّى إلى تأسيس "المجموعة الدينية الألبانية" المسمَّاة: "ديانت"؛ ومن ثَمَّ تأسيس المؤتمر الإسلامي عام 1923، ثُمَّ عَرَف عزلُ المسلمين وغيرهم من الجماعات الدينية الأخرى في ألبانيا تحوُّلاً دراميًّا؛ وذلك بإعلان ألبانيا أوَّل "دولة ملحدة" عام 1967.

أما في حالة المجتمعات المسلمة الأخرى في مختلف دول البلقان؛ فقد قامت المؤسسات الإسلامية على مبدأ الاتفاق الثنائي بين الإمبراطورية العثمانية وممثلي تلك الجماعات، التي ظلت تحمل بصمات العثمانيين على مستوى التنظيم والاتجاه الفقهي؛ وهو ما لم تستطع سلطات هابسبورغ، ولا سلطات يوغسلافيا السابقة اجتثاثه بشكل نهائي؛ بل إنَّ السلطات

اليوغسلافية تحت حكم "يوسيب بروز تيتو" سمحت بما يُعرف بالنهضة الإسلامية المعتدلة، الذي قادته الطرق الصوفية خلال المرحلة الاشتراكية في دول يوغسلافيا الاتحادية في كلٍّ من البوسنة والهرسك وخاصة في مقدونيا وكوسوفو وإقليم السنجق، أمَّا في بلغاريا فقد اختلف الأمر؛ حيث كان المبدأ هو اجتثاث المسلمين، وتطويعهم ومحاولة فصلهم عن هويتهم.

واقع الإسلام البلقاني بين الثوابت والمتغيرات

بعد انهيار الأنظمة الاشتراكية الذي وضع حدًّا لعزل تلك الشعوب البلقانية المسلمة، وعلى إثر مخلَّفات الحروب الأخيرة التي عصفت بمنطقة البلقان، فإنَّنا نلاحظ أن "الإسلام البلقاني" عَرَف جملة من التحوُّلات؛ التي طرأت عليه وغيَّرت الكثير من المعطيات والثوابت المتعلِّقَة به.

فعلى مستوى أوَّل؛ فقد عاش مسلمو البلقان منذ سنوات عديدة ظاهرة جديدة تتعلَّق بما يُسَمَّى بـ"تجديد الممارسة الشعائرية الدينية"؛ إلاَّ أنَّ هذا التجديد الذي يُوصف بالظاهرة الكبرى، ترافق -أيضًا- مع بروز نزعة نحو شخصنة الإيمان، أو بالأحرى جعله مسألة فردية لا انعكاس لها واضح على الحياة الاجتماعية؛ وهو ما أدَّى إلى فرض نوع من "القطيعة مع تقاليد الإسلام البلقاني".

لكن في الوقت نفسه فإن الإسلام ما زال يمثِّل الهوية والمرجعية؛ بل إنَّه -أيضًا- في طريقه إلى أن يكون المكوِّن الأكثر بروزًا للهوية؛ حتى بالنسبة إلى الألبانيين؛ الذين لم يكونوا يعتبرونه كذلك، كما أن الإسلام ما زال يُحافظ على طابعه الجامع على المستوى الثقافي لشعوب البلقان المسلمة.

على مستوى ثانٍ، فإنَّ الإسلام البلقاني تحوَّل من المحلية إلى العالمية بعد انفتاح بلدان البلقان على التأثيرات الخارجية، وبالتَّالي تعرَّض "الإسلام التقليدي البلقاني" على أرضه التاريخية إلى المنافسة من قِبَل "أنماط إسلامية أخرى"، وحتَّى أشكال أخرى لتفسيره وممارسة شعائره وعقائده، ونشهد اليوم حضورًا مكثَّفًا لجماعات تدعو إلى إسلام يُوصف بـ"الوهابي" تحت غطاء سلفي؛ وتسعى هذه الجماعات -بحسب ما تُرَدِّده أوساط سياسية وأمنية صربية وكرواتية ومقدونية- إلى ما تراه ضرورة "إعادة أسلمة" شعوب البلقان المسلمة وفقًا لفهمها الخاص للإسلام، كما نشهد -أيضًا- حضورًا واضحًا للتأثير الإيراني والتركي على المسلمين التقليديين في البلقان.

وعلى مستوى ثالثٍ؛ يُواجه مسلمو البلقان حملات التبشير المسيحي؛ حيث باتت المسيحية الرومانية تلقى ترحيبًا وتعاطفًا؛ خاصَّة لدى القوميين الألبانيين من دعاة إلحاق ألبانيا بالاتحاد الأوروبي، وبشكل أخصَّ من ألبان كوسوفو. وقد ساعدت دعوات زعماء ومثقَّفين ألبانيين (من بينهم إسماعيل قادري وهو رئيس حزب سياسي كبير) على توسيع حركة إقبال الألبانيين على المسيحية بأعداد كبيرة، وقد ترافقت تلك الدعوات مع رفع شعار ضرورة تأكيد رسوخ هُوية الشعب الألباني، وعلاقتها الوطيدة بالحضارة الأوروبية، وشجَّع اعتناق الزعيم السياسي والثقافي الكوسوفي "إبراهيم روغوفا" للمسيحية العديد من أبناء وطنه -أيضًا- إلى اتباع خطوته تلك، التي اتخذها قبيل وفاته.

من ناحيتهم فإنَّ المبشرين بالبروتستانتية الإنجيلية وجدوا مساحة للانتشار وكسب منتمين جدد في صفوف الألبانيين المسلمين، الذين لا يجدون تأطيرًا إسلاميًّا مناسبًا، فانتشرت البروتستانتية الإنجيلية بين مسلمي ألبانيا وكوسوفو؛ وعلى

الجملة أدَّت هذه التحوُّلات المتنوِّعة إلى تعقيد العلاقات القائمة بين الإسلام والهُوية الوطنية/القومية للشعوب المسلمة في البلقان.

مستقبل الصحوة السياسية والتعددية الحزبية

عرفت حقبة الثمانينات تحرُّكات لجماعات مسلمة ضمَّت النخبة المثقفة والمتدينة من الشباب في مختلف بلدان الاتحاد اليوغسلافي السابق، وتمحورت تلك التحرُّكات حول مطالب قومية واضحة بمزيد من الاستقلال في القرار السياسي والاجتماعي والتعليمي للجماعات المسلمة؛ فكان أن طالبت الجماعة الألبانية -من خلال عدد من المظاهرات والاحتجاجات التي عرفتها يوغسلافيا في عقد الثمانينات- بالاستقلال الذاتي لإقليم كوسوفو؛ الذي كان جزءًا من صربيا، ومَنْحِهِ صفة الجمهورية ذات الاستقلال المحدود في ظلِّ يوغسلافيا الاشتراكية، وما كان من السلطات إلاَّ أن قمعت تلك المظاهرات وقتلت واعتقلت المئات.

تلك الفترة نفسها شهدت -أيضًا- إطلاق ما يُعرف بـ"مسيرة النهضة" في بلغاريا؛ بهدف تطويع الأتراك البلغاريين، وإدماجهم وإذابتهم قسرًا داخل النسيج الاجتماعي للأُمَّة البلغارية، مستخدمة سلاحي التغيير القسري لأسماء مواطنيها التركية، ومنعهم من التواصل بلغتهم وتجريم ذلك، وقمع المظاهرات والاحتجاجات التي صاحبت تلك القرارات الحكومية وسط برك من الدماء، وحملات من الاعتقالات.

في منطقة تراسيا اليونانية طالبت الأقلية المسلمة حكومة أثينا المركزية بالاعتراف بها كأقلية وطنية تركية، وإعطائها الحقَّ في انتخاب ممثِّلين عنها داخل غرفة البرلمان اليوناني.

مع نهاية حقبة حكم الأنظمة الشيوعية -نهاية الثمانينات وبواكير التسعينات- بدأت الجماعات المسلمة في مختلف دول البلقان في تشكيل أحزاب سياسية تحمل مشاريعهم وتطلعاتهم في فترة ما بعد أنظمة الحكم الشمولية، التي حرمتهم جلَّ حقوقهم، وقد صاحبت هذه الصحوة السياسية -في عموم دول جنوب شرق أوروبا عمومًا والبلقان خصوصًا- ما يُوصف بالتَّسييس السريع للسكان المسلمين؛ الذين قُطعوا مع صمتهم الطويل وغيابهم عن الفعل السياسي.

فكانت الجماعة المسلمة في البوسنة والهرسك -بزعامة الرئيس الراحل علي عزَّت بيغوفيتش- قد أسَّست "حزب حركة العمل الديمقراطية"، الذي برز بشكل لافت في بداية التسعينات، أمَّا في مقدونيا فقد برز على الساحة السياسية حزب "من أجل نهضة ديمقراطية"، في حين تأسَّست "حركة من أجل الحقوق والحريات" في بلغاريا، أمَّا في كوسوفو فقد قاد الزعيم القومي إبراهيم روغوفا حزب "الرابطة الديمقراطية الكوسوفية".

يختلف الوضع في ألبانيا ذات الأغلبية المطلقة من السكان المسلمين؛ حيث لا تسمح سلطاتها بإنشاء أحزاب ذات مرجعية إسلامية خاصة بمسلمي البلاد؛ وبالتالي فلا وجود لمثل تلك الأحزاب في فسيفسائها الحزبية؛ وذلك في حين لم تؤدِّ محاولات مسلمي اليونان الأتراك المتكرِّرَة إلى إنشاء حزب يمثِّلهم ويدافع عن حقوقهم.

وقد كانت تلك الأحزاب ترفع مطالب مختلفة تُراوح في درجتها بداية من الاكتفاء بالحصول على بعض الحقوق الثقافية في كلٍّ من بلغاريا واليونان، إلى المطالبة باستقلال ذاتي لمناطق المسلمين في مقدونيا وإقليم السنجق الواقع داخل صربيا،

وصولاً إلى إعلان الاستقلال الكامل للبوسنة والهرسك وكوسوفو؛ حيث توجد أغلبية مسلمة فيهما، وبذلك التحقا هذان البلدان المستقلاَّن بألبانيا؛ لتكون هذه البلدان الثلاثة ذات ثقل سكاني مسلم؛ وذلك مع إقامة أنظمة علمانية فيها.

تراجع الاتجاه القومي وبروز ظاهرة التعددية الحزبية السياسية

شهدت بدايات العقد الأول من القرن الواحد والعشرين تراجعًا واضحًا في الاتجاه القومي الأحادي، الذي كانت تفرضه الأحزاب السياسية التي تم إنشاؤها في العقد الأخير من القرن الماضي في دول جنوب شرق أوروبا؛ حيث برزت في المشهد السياسي المسلم أحزاب وقوى سياسية صاعدة أخرى باتت تنافس "الأحزاب الأم"؛ ففي كوسوفو وجد حزب "الرابطة الديمقراطية الكوسوفية" منافسة محتدمة من طرف "جيش التحرير الكوسوفي"؛ الذي عارض سياسات الرابطة السلمية في المطالبة بحقوق الكوسوفيين في الانفصال، وتأسيس دولتهم الخاصة بهم على إقليم كوسوفو، ونادى بضرورة تقديم الخيار العسكري المسلَّح لانتزاع حقِّ الكوسوفيين في الاستقلال عن صربيا، أمَّا في البوسنة فقد نازع الحزب الذي أسَّسه رئيس الوزراء الأسبق حارث سيلايدجيتش "حزب من أجل البوسنة والهرسك" حزبَ "جبهة العمل الديمقراطية". وفي مقدونيا شهد العقد الأول من القرن الحالي تأسيس حزبين صاعدين على أساس إثني؛ هما: "الحزب الديمقراطي للألبانيين" وحزب "الاتحاد الديمقراطي من أجل الاندماج". أما بلغاريا فعرفت بدورها نشأة حزب "الحركة من أجل الحقوق والحريات"؛ الذي لم يكن له أحزاب إثنية منافسة؛ لكنَّه لم ينجح في الحصول على تأييد كلِّ الناخبين المسلمين، الذين صوَّت عدد كبير منهم للحزب الاشتراكي البلغاري.

أما في اليونان التي لا يوجد فيها حزب إسلامي، نجد أنَّ المسلمين الأتراك والبوماك والغجر في تراسيا الغربية قد منحوا أصواتهم للمرشحين المسلمين المشاركين في قوائم الأحزاب اليونانية الكبرى؛ هذه الصحوة السياسية لمسلمي جنوب شرق أوروبا تجد أمامها عراقيل جدية عديدة؛ يتمثل أهمُّها في الانقسام الحاصل داخل الجماعات المسلمة الواحدة في كلِّ دولة على حدة؛ حيث ينقسم المسلمون في ولاءاتهم بين أحزاب قومية، وأخرى تسعى إلى تجاوز اشتراطات المكوِّن الإثني في برامجها السياسية؛ لتستوعب مفهوم المواطنة، وتخاطب مواطني الدولة التي توجد فيها. هذا الانقسام يُضعف من حظوظ تلك الأحزاب في الحصول على قاعدة شعبية عريضة، ويؤدِّي في الغالب إلى انشطارها، وهو ما نشهده في عدد من البلدان؛ حيث أصبح التعدُّد الحزبي عاملَ إضعافٍ وتفكيكٍ للجماعات المسلمة؛ سواء تلك المنتمية إلى الإثنية نفسها، أو التي تتمايز إثنياتها (بوشناق، ألبانيين، بوماك، تربشيين، غجر، أتراك...)، على المستويين الأيديولوجي والإثني.

في كلتا الحالتين المشار إليهما فإنَّ التعدُّدية الحزبية -التي طبعت الحياة السياسية لمسلمي البلقان- أفقدتهم تناغمهم الاجتماعي، وأفرزت نوعًا من العداء بينهم على أساس حزبي، وأوصلتهم إلى أزمات سياسية حادَّة؛ فالبوسنة والهرسك تعيش حالة من الانقسام الحادِّ داخل المجتمع المسلم بين فسيفساء من الأحزاب؛ تتزعمها ثلاثة أحزاب كبرى؛ هي: حزب "جبهة العمل الديمقراطية"، وحزب "من أجل البوسنة والهرسك"، وحزب "جبهة من أجل مستقبل أفضل"؛ أمَّا في مقدونيا فالوضع بالسوء نفسه؛ حيث طالت الانقسامات الحزبية حتى أصغر الجماعات الإثنية المسلمة، التي توزَّعت بين أحزاب مجهرية لا وزن انتخابي لها على الإطلاق، في حين يتوزَّع ولاء مسلمي بلغاريا الحزبي بين الحزب الإثني الوحيد "الحركة من أجل الحقوق والحريات"، والحزب الاشتراكي البلغاري، والشيء نفسه حدث في كوسوفو واليونان.

بالإضافة إلى هذا التحدِّي الخطير، فإن مسلمي جنوب شرق أوروبا مطالَبون اليوم بالعمل مع غيرهم من مواطني الدول التي يعيشون فيها (بمن فيهم أولئك الذين سعوا إلى اجتثاث وجودهم من أرضهم، وقتلوا منهم وعذبوا مئات الآلاف) على

تحقيق انضمام دولهم إلى الاتحاد الأوروبي؛ الذي لا يفتأ بدوره يُطالبهم بإظهار قبولهم والتزامهم المبدئي بالمعايير والشروط السياسية والقيمية والاقتصادية التي يفرضها؛ وذلك مع الإبقاء على موقفه المشكِّك في نواياهم (4).

قد يُمَثِّل انضمام بلدان جنوب شرق أوروبا -سواء تلك التي يوجد فيها أغلبية مطلقة، أو تلك التي تضمُّ أقليات نسبية للمسلمين- إلى الاتحاد الأوروبي -في حال إنجازه- خطوة على طريق تجاوز مسلمي البلقان لحالة توزُّع ولائهم بين الانتماء للدين أو للقومية أو للوطن.

ومهما يكن من أمر فإن وجود المسلمين على تلك الأراضي يطرح قضية طبيعة الإسلام الذي يعتنقه مسلمو جنوب شرق أوروبا ويمارسونه بالنسبة إلى جيرانهم الأقربين، كما بالنسبة إلى الأوروبيين الغربيين، الذين يُحَذِّرون على الدوام من إمكانية توثيق الروابط بين مسلمي المنطقة فيما بينهم، أو توثيق ارتباطهم بالمسلمين الأتراك أو الإيرانيين أو الخليجيين؛ ويبدو أن هذا المعطى مهمٌّ جدًّا في تشكيل موقف أوروبا من مستقبل إدماج أو إلحاق دول مثل البوسنة والهرسك وصربيا والجبل الأسود ومقدونيا وكوسوفو وألبانيا في الاتحاد الأوروبي.

فبعض الأوروبيين يرى في "المسلمين والإسلام البلقاني" حصان طروادة؛ الذي تتخفَّى وراءه الفصائل الأصولية الإسلامية الأكثر تطرُّفًا؛ في حين ترى القلَّة من المثقفين والسياسيين الغربيين أنَّ إسلام ومسلمي جنوب شرق أوروبا عامل ثراء وتنوُّع إيجابي سيخدم أوروبا، ويُضيف إلى تنوُّعها وغناها الثقافي والحضاري والديني، ولا شكَّ في أنَّ العبء في ترسيخ هذا الجانب الإيجابي وتأكيده سيكون ثمرة تعاون وثقة متبادلة بين الجانبين؛ تؤدِّي فيه النُّخب السياسية والفكرية المسلمة في جنوب شرق أوروبا الدور الحاسم(5).

وفي كلِّ الأحوال فقد أظهرت التجارب السابقة أنَّه ليس من السهل في جنوب شرق أوروبا أن يكون المرء مسلمًا وأوروبيًّا وديمقراطيًّا دون أن يتنازل عن واحدة من هذه الصفات؛ فإمَّا هُوِيَّته أو وطنه أو قناعاته.

** كريم الماجري - باحث متخصص بشؤون البلقان*

الهوامش

(1) (مثلما يؤكِّد عدد من الباحثين المتخصصين وعلى رأسهم الأكاديمي الدكتور فريد موهيتش): يرى الأكاديمي الدكتور موهيتش في كتابه "المكونات الإسلامية للهوية الأوروبية" أنَّ الإسلام والمسلمين من السكان الأصليين في القارة الأوروبية، وأنَّ حضور الإسلام في جنوب شرق القارة الأوروبية كان حاضرًا منذ القرن السابع للميلاد؛ بل استطاع أن يأسر قلوب العديدين في باقي دول أوروبا؛ خاصَّة المنطقة الاسكندنافية منها، كما أسَّس المسلمون أول دولة أوروبية مسلمة في الأندلس، وساهموا مساهمات لا يمكن بأي حال تجاهلها في بناء الهوية الأوروبية؛ على الرغم من مزاعم الغربيين المسيحيين بأنَّ أوروبا مسيحية خالصة، ويجادل الدكتور موهيتش بأنَّ القارة أوروبية إسلامية بالقدر نفسه الذي تكون فيه مسيحية ويهودية؛ باعتبار أنَّ الديانات السماوية الثلاث الكبرى وافدة عليها وليست منزلة على أراضيها".

(2) (حرب 1992-1995 في البوسنة والهرسك وصربيا وكرواتي، وحرب كوسوفو 1999) إلى القول: إنَّ تلك الحروب "التي تمَّ فيها الاعتداء الواضح على المسلمين، وارتُكبت في حقِّهم المجازر والجرائم ضد الإنسانية في حرب وصفتها الأمم المتحدة ومحكمة الجنايات الدولية الخاصة بيوغسلافيا وغيرها من الهيئات والمنظمات الدولية بأنَّها حرب إبادة استهدفت المسلمين في البوسنة والهرسك أساسًا، وفي كلِّ المدن والقرى الصربية والكرواتية...".

(3) يغلب أتباع المذهب الحنفي على المسلمين الأتراك، وكذلك في المقاطعات البلقانية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية، ويُعتبر المذهب الحنفي لدى أتباعه في البلقان أكثر سلاسة، وأحيانًا أكثر ليبرالية من المذاهب السنية الكبرى الأخرى: الشافعية، والمالكية، والحنبلية.

(4) في عام 1997 أعلن الباحث الفرنسي المتخصِّص في دراسة الإسلام السياسي في جنوب شرق أوروبا، كزافييه بوغاريل Xavier Bougarel، تراجعه عن مقولاته السابقة المتهمة للإسلام البلقاني بالتشدُّد والتطرُّف، وكتب: "لن يكون من العدل تقديم الإسلام البلقاني -وما يشهده من تطوُّر حاليًّا- على أنَّه تهديد لأوروبا؛ بل إنَّ مثل هذا القول ستكون له تداعيات خطيرة؛ فلا وجود أصلاً لـ"محور أخضر" في البلقان، ولا يمكن اعتبار سكان البلقان المسلمين عامل أزمة في المنطقة؛ بل هم في الواقع ضحايا وفاعلون سياسيون واجتماعيون وثقافيون من بين فاعلين آخرين مشتركين في إنتاج الأزمات في المنطقة".

(5) بوغاريل: " Balkans. Les différentesfacettes de l'islam" ,P@ges Europe, 1eravril 2014 - La Documentation française © DILA

قائمة المراجع

1- (Alexandre Toumarkine, Les migrations des populations musulmanes balkaniques en Anatolie (1878-1913), Istanbul: Isis (1995.

2- Bougarel.Xavier and Clayer (eds), Le nouvel Islam balkanique.

3- (DarinaVasileva, "Bulgarian Turkish Emigration and Return", International Migration Review, XXVI, no. 2 (Summer 1992.

4- ..EnesKarić, "Bosanskemuslimanskeraspravezaiprotivobnoveireforme u XX stoljeću", in EnesKarić (ed

5- (EnesKarći, Bosanskemuslimanskerasprave I – Karić, Ljubušak, Sarajevo: Sedam (2003.

6- (FikretKarčić, Društveno-pravniaspektiislamskogreformizma, Sarajevo: Islamskiteološkifakultet (1990.

7- Jeanne Hersant, "L'élaboration d'un discours identitaire dans l'espace migratoire des Turcs de Thrace occidentale", Cahiers (d'études sur la Méditerranée orientale et le monde turco-iranien, no. 34 (July 2002.

8- ."Hugh Poulton, "Turkey as Kin-State: Turkish Foreign Policy Towards Turkish and Muslim Communities in the Balkans

9- Justin Mac Carthy, Death and Exile. The Ethnic Cleansing of Ottoman Muslims (1821–1922), Princeton: Princeton University (Press (1996.

10- Kemal Kırışçı, "Post Second World War Immigration from Balkan Countries to Turkey", New Perspectives on Turkey, no. 12 ((Spring 1995.

11- Klanco, MuslimanskezajedniceBošnjaka u zapadnojEvropi.

12- PetarKrasztiev "Understated, Overexposed: Turks in Bulgaria, Immigrants in Turkey", Balkanologie, V, no. 1–2 (December (2001.

13- Poulton and Taji-Farouki, Muslim Identity and the Balkan State, pp. 194–213; ŞuleKut, "Turkey in the Post-Communist ."Balkans: Between Activism and Self-Restraint

14- Sylvie Gangloff, "La politiquebalkanique de la Turquie et le poids du passé ottoman", in Bougarel and Clayer, Le nouvel Islam balkanique.

15- (Turkish Review of Balkan Studies, no. 3 (1996/1997.

انتهى